# النابغون في أوطانهم

## حديث عن البحتري

الأستاذ محمود عزت عرفه

[ تتمة ما نشر في العدد الماضي ]

... وللبحتري في هذا الشأن حديث عجيب .

فقد كان أحد الذين ارتفعوا بشعرهم من حضيض الجهالة والخمول إلى ذروة النباهة والمجد . ولسنا نجد في ديوانه على ضخامته مايشير به إلى حياته الأولى في موطنه « مَنبج » (١) سوى ماينص عليه من عداوة بعض أهله له ، رغم مايعود به عليهم — وعلى سواهم — من فضل المال والجاه ، والشفاعة لدى الخلفاء ، ورفد العفاة وفك العانين .. وذلك حيث يقول في قصيدة له :

.. ومن الأقارب من يُسر بعيلتي     سفَهاً ، وعزُّ حياتهم بحياتي
إن أبقَ أو أهلكْ فقد نلت التي     ملأت صدور أقاربي وعداتي
وغَنيتُ ندمانَ الخلائفِ نابهاً     ذكري ، وناعمة بهم نشواتي
وشفعت في الأمر الجليل إليهمو     بعد الجليل ، فأنجحوا طَلِباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم     من رِفد طلّابٍ وفك عناةِ

وحظى البحتري عند المتوكل بأرفع المراتب وأسنى الدرجات فكان شاعره المقرب الأثير لاتندُّ عنه في الحياة رغبة أو تبعد دونه أمنية .. ولكن شاء القدر مع ذلك ألا تزال نفسه تهفو إلى عَرَض ما ، فكان ينتابه القلق ويساوره الحنين إلى الإلمام بوطنه منبج ، ولا ينفك يهتف بالمتوكل مستحثاً إياه على قصد هذه البلاد كلما قصد دونها إقليما أو غشى موضعاً :

لو كنت أحسد أو أنافس معشراً     لحسدت أو نافست أهل الموصل
غشى الربيع ديارهم وغشيتها     وكلاكما ذو عارض متهلّل
فأضاء منهما كل فج مظلم     بكما ، وأخصب كل واد ممحل
فتى تخيم بالشآم فيكتسى     بلدى نباتاً من نداك المسبل؟!

وكأنما شاء القدر — مرة أخرى — أن يلوح للبحتري بتحقيق أمنيته . فاضطرب حبل الأمور على المتوكل في سامراء بسبب اتساع نفوذ الأتراك واستفحال خطرهم ؛ ولم يكن ليخضد من شوكتهم في شيء قتله إيتاخ عام ٢٣٥ هـ ، وكان المدبر لفتنتهم والمتولي كبر هذا الأمر فيهم . فصح عزم المتوكل على تغيير عاصمة خلافته والانحياز إلى دمشق ليكون بمنجاة من كيدهم وتطاولهم .. وغدا عليه البحتري — مستحسناً محبذا — يقول :

.. إن دمشقاً أصبحت جنة     مخضرّة الروض غَذاة البراق
هواؤها الفضفاض غض الندى     وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أكنافها     والعيش فيها ذو حواش رقاق
ناظرة نحوك مشتاقةٌ     منك إلى القرب ووشك التلاق
وكيف لاتؤثرها بالهوى     وصيفها مثل شتاء العراق ؟!

وأنفذ المتوكل عزمه في عام ٢٤٣ هـ ، فشخص إلى دمشق ونقل إليها دواوين الخلافة ، ووطن نفسه على المقام بها . فلم يكن عجيباً حينذاك أن نسمع البحتري يقول في قصيدة له ، وكأنما هو يتنفس الصعداء بعد طول اللهفة وفرط الانتظار :

قد رحلنا عن العرا     قِ وعن قطبها النكدْ
حبذا العيش في دمشـ     ق إذا ليلها برد !
حيث يُستقبل الزما     نُ ويستحسن البلد
سفرةٌ جدَّدتْ لنا الـ     لهوَ أيامُه الجدد
عزم الله للخليـــ     فةِ فيه على الرشدْ

ويقول في موضع آخر وهو يحاول تحسين الشام في عين المتوكل ، وحضه على موالاة المقام بدمشق :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها     وقد وفى لك مطريها بما وعدا

— ولعله يقصد نفسه بهذا المطري الوافي بما وعد —

إذا أردت ملأت العين من بلد     مستحسن ، وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً     ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلا     أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولّى بعد جيئته     أو الربيع دنا من بعدما بعدا

.. وذلك ضمن قصيدة فاخرة مطلعها :

العيش في ليل ( داريّا ) إذا برَ
والراح نمزجها بالماء من ( بردَى )

على أن السياسة ليست شيئاً يخضع لأهواء الشعراء ؛ فما

(١) بلدة من أعمال الشام إلى الشمال الشرقي من حلب

تلبّث المتوكل بعد استقراره بدمشق إلا ريثما يعد عدته للرجوع إلى سرّ من را ، بعد أن شغب عليه الأتراك فيها وتحركوا في طلب أرزاقهم ، وكانوا قد أوجسوا خيفة من انحيازه إلى الشام ، وتوقعوا أن يستعين عليهم بسلطان العرب هناك . . .

عاد المتوكل يزعم أنه استوبأ دمشق ، وفي صدره مما جرى غصة (1) ؛ وانهارت آمال أبي عبادة حتى ليبدو من المفارقات الغريبة أن نراه يهنيء المتوكل بهذا العود ، ويستحسن ما تم من إنفاذه فيقول :

لعمري لقد آب الخليفةُ جعفرٌ ... وفي كل نفس حاجة من قفوله
دعاه الهوى في سرَّ من رَاء فانكفا ... إليها انكفاء الليث تلقاء غيله
على أنها قد كان بُدّل طيبُها ... ورحّل عنها أنسُها برحيله
وإفراطها في القبح عند خروجه ... كأفراطها في الحسن عند دخوله
وقد لبست بغدادُ أحسن زيّها ... لإقباله ، واستشرفت لعُدوله
ويثنيه عنها شوقه ونزاعه ... إلى عرض صحن الجعفري وطوله (2)

وقد أصبح قصارى أمل البحتري بعد هذا الحادث أن يلم بموطنه في زيارات قصيرة خاطفة ، يواكبه فيها من ألطاف الخليفة ومبراته ما يرضي غروره ، ويظهر لقومه منزلته وجاهه . وإنه ليخاطب المعتز (3) في ذلك ، وكان من أحظى الناس عنده ، فيقول :

هل أطلعنّ على الشآم مبجّلاً ... في عز دولتك الجديد الموثق ؟
فأرمّ خلة ضيعةٍ تصف اسمها ... وألمّ ثمّ بصبية لي دردق ؟
شهران إن يسرت إذنيَ فيهما ... كفلا بألفة شمليَ المتفرق

(1) يقول المرحوم الخضري بك في محاضراته : بعد أن أقام المتوكل بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد ، لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل ، والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل . وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائدا إلى سامراء . ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة .

(2) من قصور سر من رأى ، أنشأه المتوكل عام ٢٤٥ هـ

(3) المعتز « أبو عبد الله » ابن المتوكل ، يفصله من أبيه الخليفتان المنتصر والمستعين . ولم يكن للبحتري معهما كبير شأن .

وإن المعتز ليعرف هذا الشعور من نفس البحتري فيبرّه ويكرمه ، ويحمله على الجرد العتاق إلى موطنه منبج ، حيث يلقى هنالك أهله ، ويتعرف حال ضيعته ( الضائعة ) كما يقول . والخليفة يُصحِبه به الطرف والهدايا تحملها عشرة من خيل البريد وفيها بدر المال وخلع الديباج ، وجوادان أصيلان : كميت وأبلق وسيف صقيل في إهدائه تشريف وتنويه . . وفي ذلك يقول أبو عبادة :

تجانفَ بي نهجَ الشآم وطاعَ لي ... عنانٌ إلى أكناف منبج مطلقُ
أسرُّ صديقا أو أسوء ملاحياً ... وأنشر آلاء بطولك تنطق
حملتَ على عشرٍ من البرْدِ مركبي ... عجالاً عليهن الشكيم المحلق
وأكثرت زادي من بدورٍ تتابعت ... لجدوك فيهن اللجيْن المطرق
ومنتسبانِ للوجيه ولاحقٍ ... كميتٌ يسر الناظرين وأبلق
ومن خلعٍ فازت بلبساك فاغتدى ... لها أرج من طيب عَرفك يعبق
عليها رداءٌ من حمائل مرهفٍ ... صقيل يزلُّ الطرفُ عنه فيزلق

وبوفاة أبي عبد الله المعتز عام ٢٥٥ هـ أفل نجم البحتري من سماء الخلافة في سر من رأى . إذ لم يكن موضعه لدى المهتدي أو المعتمد — وقد خلفا المعتز على التتابع — بالموضع الذي يرضي طموحه ، أو يكافيء سابق منزلته لدى المتوكل وابنه . وكان الذي جرى من الأحداث على عهد المتوكل والمنتصر ثم المستعين والمعتز قد خلف في نفس الشاعر أثراً من اليأس عميقا ، وجعله قليل الثقة بالناس وبالحياة .. يقول الشعر في مناسباته لأن من واجبه أن يقوله لا لأنه متأثر بما يدور حوله ، وبدت عليه في أخريات أيامه نزعة قوية إلى الانزواء في بلدته يراقب منها تيار الحوادث في صمت واعتبار . استمع إليه يخاطب أبا الصقر إسماعيل ابن بلبل — الذي وزر للمعتمد بين عامي ٢٧٢ و٢٧٨ هـ — فيقول:

بقيت ، فكائن جئت بادئ نعمة ... يقلّ السحاب أن يجيء برسيلها
وأعطيتَ طلابَ النوافل سؤْلهم ... فمن أين لا تعطي القصائد سولها ؟